المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

محنة أهل الأندلس بين الدّجن والارتحال بعد سّقوط غرناطة

د.بن مصطفى دريس
كلية العلوم الاجتماعية- جامعة سعيدة

تاريخ الإرسال: 02/ 01 / 2019 تاريخ القبول: 07/ 01 / 2019 ، تاريخ النشر: 12/ 01 / 2019

الملخص: يتناول المقال بالدراسة جانبا مأساويا لمسلمي الأندلس بعد سقوط آخر القلاع الاسلامية بشبه الجزيرة الايبيرية،فبعد أن عاشوا بأرضهم وأرض أجدادهم مكرمين، وحفظوا دماء من خالفهم في اللغة والأصل والدين، و رغم عهود الآمان التي منحها لهم ملك اسبانيا فرديناند إلا انه سرعان ما تنكر لها وبدأ في تعقب آثار كل مسلم حتى خارج إسبانيا في محاولة لاجتثاث أصول الإسلام، وأمام ذلك الاضطهاد لم يكن أمام سكان غرناطة خاصة سوى خيارين : اما الهجرة الى بلاد المغرب أو التمسك بالأرض والتجديف ضد التيار بممارسة طقوس دينهم خفية واتخاذ الحيطة من كل شئ قد يكشف أمرهم ليعيشوا بعد ذلك في ذلك مأساة حقيقة.

الكلمات المفتاحية: الاندلس ؛الدّجن؛ المحنة؛ الارتحال؛ غرناطة: سقوط؛

Abstract : This article tackles the tragedy of the Muslims of Andalusia after the fall of the last Islamic castles in the Iberian Peninsula, so after their life in dignity on the land of their ancestors, and kept the blood of the stakes in the language, the origin, religion, and despite the security commitments granted by the King of Spain Ferdinand to them, but he quickly denied and began to track the effects of all Muslims, even outside of Spain, in a attempt to eradicate the origins of Islam, and in front of the persecution there was not only two choices in front of the Muslims of Granada: either to emigrate to the Maghreb or to stay there to practice rituals in secret and to take the necessary precautions to all things that could reveal them, so it was the beginning of a long and hard tragedy.

Key words: andalousie;granada;ordeal;fall;imigration;

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

مقدمة:

لا يزال الكثير من العرب والمسلمين يأسفون لما آلت إليه بلاد الأندلس ولضياعها من أيدي أجدادهم بعد أن شيدوا بها حضارة لا تزال آثارها شاهدة عليها وعلى رسوخ العرب والمسلمين فيها وفيما جسّدته من فنون أبهرت الاسبان والأوروبيين بعد أن رحلوا عنها، فأصبح يحلو للكثيرين منهم أن ينعتوها بالفردوس الضائع أو المفقود، في حين يرى الاسبان بأنه حق سلب منهم لثماني قرون واستردّ، لكن النهاية تلك لم تكن لتحدث لولا تضافر جملة من العوامل مثّلت ولا تزال تمثل قاعدة ثابتة في سقوط الدّول وعلى رأسها الترف أو التكاثر المادي، الذي يذكر ابن خلدون أنه من أهم الأسباب التي تؤدي إلى خراب وزوال الدّول في نظريته المشهورة والمعروفة ب-التعاقب الدوري للحضارات-، وهذا ما يؤكده صاحب كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر واقعا في الأندلس أيضا.

لقد مثلت مدينة غرناطة آخر قلاع المسلمين في الأندلس تحت حكم بني الأحمر، فأخذت بذلك اسمهم أي: دولة بني الأحمر، والتي يعتبرها البعض آخر إمارات أو دويلات ملوك الطوائف رغم بعدها الزمني عن فترة نشوء تلك الإمارات، لأنها خصّت بحكم بني الأحمر الذين مثلوا طائفة لا حكما شاملا للمنطقة على غرار المرابطين والموحدين، وحين سقوط هذه القلعة وحتى قبله واجه المسلمون مصيرا محتوما بين البقاء والاختفاء من محاكم التفتيش([1]) أو الهجرة من بلد أصبحت تحت حكم النصارى بعد سلسلة من المعارك عرفت بحروب الاسترداد فكانت بذلك آخر حبة من الرّمانة الإسلامية التي أصرّ الاسبان على أكلها حبّة حبّة حتى النهاية .

ترى ما هي الظروف التي سقطت فيها آخر هذه الإمارات - غرناطة-؟ وما الظروف التي سلمت فيها المدينة ؟ وما كان مصير أهلها بعد ذلك ؟

ظروف سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين:

تعتبر موقعة حصن العقاب الشهيرة 609 هـ/1212م التي انهزم فيها الجيش الموحدي القشّة التي قصمت ظهر البعير، إذ مثلت بداية النهاية لدولة الموحدين والحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية بشكل عام، فبعد أن استشرى الفساد في أوصالها، وانتاب اليأس وتمكن من نفوس الجند الذين أصابهم بذلك قهر نفسي جعلهم حسب المراكشي لا يسلّون سيفا ولا يشرعون رمحا في هذه المعركة([2])، لأنه بوفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف انقطع العطاء الذي كان يجزل به للجند كل أربعة أشهر، و نجد من جهة أخرى إصرار وعزم النصارى على استرجاع الأندلس والانتقام من المسلمين في كلا العدوتين، ويرى الكاتب خينيس دي بيرثا بأن ذلك حق مسلوب استرد بعد حروب طويلة ودامية خاضتها مملكتا قشتالة وليون المسيحيتين ضد المسلمين الذين احتلوا اسبانيا منذ عهد الأمير

[1]. أنشأت من طرف الراهب توماس دي توركيمادا،تعرف أيضا بديوان التحقيق la inquisition والسجن التابع لها هو البيت المقدس، أما الموريسكيون فسمّوها محكمة الشيطان ورئيسها الشيطان.

[2]. المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ، تحقيق وشرح صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية – صيدا- بيروت، 1426هـ/2006م، ص235.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

بيلايوpelayo وحتى مجيء الملك فيرناندو الخامس والملكة إيزابيلا، وقد استطاع هذان الملكان العظيمان الاستيلاء على غرناطة([3]).

نعم لقد كانت مملكة غرناطة جزءا من كل، جرى عليها ما جرى على ما سبقها من الدول الإسلامية على أرض الأندلس أو بلاد المغرب الإسلامي ككل، فقد وصلت لذروة قوتها ومجدها في عهد محمد الخامس([4])، لكن ما لبثت الفتنة أن دبت فيها، في الوقت الذي قويت فيه شوكة الأسبان وتوحّدهم بعد الزواج السياسي الذي تم بين فريناند وإيزابيلا سنة 874هـ/1469م وبفضله توحدت قشتالة وأراغون. لقد استغل الأسبان هذه الوضعية والصراع الداخلي في غرناطة بين الأمراء الذي بلغ ذروته وعلى الأخص بين علي أبي الحسن وولده أبي عبد الله ، فقاموا بشن حرب متواصلة على المملكة ، تخللتها فترات حصار طويلة ضعضعت أركان الدولة، ويصف لنا صاحب النبذة ذلك الوضع فيقول : ((بدأ ملك الأمير أبي الحسن في التقهقر والانتكاس والانتغاص، وذلك أنه اشتغل بالذات والانهماك في الشهوات واللهو بالنساء المطربات وركن إلى الراحة والغفلات، وضيّع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان وثقّل المغارم وكثّر الضرائب في البلدان ومكّس الأسواق ونهب الأموال وشح بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك))[(5)].

أضف إلى ذلك أن المسلمين قد بلغوا درجة كبيرة من الهوان في أنفسهم وأهلهم بالأندلس، إذ وفي صفر895هـ /1488م أصبح الأمير محمد بن سعد من مدينة وادي أش([6]) تابعا لملك قشتالة وساعده هو وقواده لتطويع ما بقي من بلاد المسلمين مقابل وعده له بإبقائه أو إعطائه مدينة وادي آش وكل مدينة وحصن وقرية كانت تحت طاعته([7])، وفعلا فقد كانوا له عونا على المسلمين وطوعوا له جميع البلاد والقرى والحصون التي كانت تحت طاعتهم من مدينة المرية إلى مدينة المنكب، ومن مدينة المنكب إلى قرية البذول –Padul -. فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نصب ([8]). وهذا ما يؤكده بيريث دي ايتا حين يقول بأن الملك قد أنعم على الفرسان المسلمين الذين تعاونوا معه وأجزل لهم العطاء كما أجزل العطاء لأعوانه الكبار وغيرهم ممن برزوا خلال هذه الحرب([9]).

---

[3]. خينيس بيريث دي ايتا، الحرب ضد الموريسكيين، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن،ط1.2009 المركز القومي للترجمة، القاهرة،ص29

[4]. هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل النصري ، حكم من سنة 755هـ إلى 760هـ- أوكل شؤون الوزارة للسان الدين بن الخطيب كاتب أبيه، وخوفا على الرعية وسلامتهم فقد أعلن ولائه لملك قشتالة ومد روابط الصداقة نحو بني مرين.

[5].مجهول،نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ط1، ضبطه وعلّق عليه ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، مصر 2006، ص27.

[6].وادي آش،Guadix بلدة تقع على نهر فردس على بعد 53 كيلومترا شمال شرقي مدينة غرناطة أي باتجاه مرسية .

[7]. مجهول، المصدر السابق،ص 26.

[8]. نفسه،ص 26-27.

[9]. خينيس بيريث دي ايتا، المرجع السابق،ص29.

Issn: 2335-1470 المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019

لقد كانت حربا صليبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد تمّت عبر مراحل متعددة، وتطوع فيها الرجال من دول غربي أوروبا وباركتها الكنيسة والبابا من ايطاليا([10])، إذ نودي كل الناس لشرف الدفاع عن الدين والوطن وهزمهم لجيش الناصر بن المنصور في موقعة العقاب، فلم يعد للموحدين القدرة على المواجهة أو رد الاعتداءات الخارجية لما صحب ذلك من انهيار للروح العسكرية، وقد أدرك هذه الحقيقة الشاعر الأندلسي ابن عسال الذي هزّ وجدانه سقوط طليطلة سنة 478 هـ /1085 م واحتلالها من قبل الفونصو السادس Alfonso VI فعرف أن ذلك له ما بعده وقال محذراً إخوانه هناك

يا أهل أندلس حثوا مطيكم *** فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب يُنسل من أطرافه وأرى *** ثوب الجزيرة منسولا من الوَسَطِ

من جاور الشر لا يأمن بوائقه *** كيف الحياةُ مع الحيات في سَفَطِ([11])

وكأنه يدعو أهل الأندلس جميعهم إلى الهجرة والرحيل منها إلى بلاد غيرها وان محاولة البقاء والمقاومة يعد ضربا الغلط، لأن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة([12]) التي أخذها الأذفونش من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحي بن ذي النون([13]) بعد أن حاصرها سبع سنين ، وبعد تضعضع بلاد الأندلس وسقوطها، استقلت الولايات عن بعضها البعض، الأمر الذي سهل مهمة الإسبان في الإستيلاء على تلك الدويلات المتهالكة خلال فترةٍ وجيزة ، وبما أن غرناطة أصبحت الملاذ الأخير لمسلمي الأندلس عند سقوط مدنهم، فقد تقاطر عليها جموع من المسلمين ليمارسوا طقوسهم الدينية بحرية ويتكلمون بلغتهم التي أصبح الحديث بها يمثل خطرا عليهم في المناطق التي سيطر عليها النصارى .

إذا كانت غرناطة هي الوحيدة التي بقيت صامدةً في وجه الغزاة، ربما لنزوح العرب المسلمين إليها من المدن التي تساقطت تباعا بأيدي الاسبان والذي زاد في قوة صمودها وجعل من دخول جيوش النصارى إليها شيئا صعبا ومتعذرا ،إضافة إلى موقعها في الجنوب من اسبانيا وحصانتها طبيعيا ونتيجة للحصون والأسوار التي جعلت منها مملكة قوية،و هذه ربما كانت الأسباب التي جعلت

---

[10]. *Victor Duruy, histoire du moyen Age-depuis la chute de l empire de l occident jusqu'au milieu du Xv siècle ; 13 édition, librairie hachette, Paris 1890 , p516.*

[11].انظر المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ،بيروت 1988،ج4، ص352.

[12]. طليطلة (Toledo) عاصمة اسبانيا القديمة كانت تعرف لدى المسلمين بالثغر الأوسط ومثلت الحاجز الشمالي الأوسط للدولة الإسلامية بالأندلس تحتل موقعا جغرافيا استراتيجيا خطيرا من الناحية العسكرية والسياسية ;ولهذا كانت موضع عدوان مستمر وغارات متواصلة من الممالك النصرانية ،فهي تعد الخطوة الأولى والاهم للسيطرة على ملوك الطوائف الأندلسية في القبضة النصرانية،انظر راغب السرحاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، ط1،2011م، ج1، ص368-369.

[13].أسرة يقال أنها بربرية الأصول من قبائل هوارة، واسم جدهم الأكبر زنون، فتصحف الرسم بطول المدة ومضي الزمن فصار ذو النون، انظر راغب السرحاني، المرجع السابق، ص369.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

فرناندو يلجأ إلى المعاهدة والخديعة لأخذها على غير ما استعمله هو وملوك النصارى قبله في استرداد المدن من أيدي المسلمين، وأيضاً لمساعدات أمراء بني مرين الذين مدّوها بالجنود والسلاح والرجال لمواجهة جميع التحديات التي تتعرض لها، ورفعوا راية الجهاد في بلاد الأندلس رغم النوايا السيئة لبني الأحمر خشية استيلائهم على مملكتهم وخاصة على عهد أبي يوسف يعقوب المريني الذي أبهرتهم قوة جيشه([14])متذكرين في ذلك ما فعل المرابطون بابن عباد([15]) في اشبيلية، لكن هذه المساعدات والمدد سرعان ما انقطع، حيث ضعفت قوة ذوي الإسلام وماتت الأبطال وكانت المجاعة الكبرى بالعدوة، وقلت رجال العدوة([16]) وقطع الجواز منها إلى الأندلس([17]) ، لتواجه بعدها مصيرها المحتوم بعد استغاثات لم تلق الاستجابة، فبلاد المغرب غارقة في حروبها الداخلية وبنو مرين يصارعون من أجل إثبات وجودهم على الأرض في خلافة الموحدين وهم يصارعونهم داخل المغرب .

معاهدة التسليم وسقوط غرناطة:

لـــقد بدأ الاسبان مخططهم بالاستيلاء على المناطق المحيطة بغرناطة([18]) ليعسكروا بعدها في جنوبها الغربي فيما كان يعرف بمرج غرناطة، وأسسوا هناك معسكرا أطلق عليه اسم بلدة شنتفي([19]) Santa fe ، ليبدأوا منها غاراتهم عليها ومحاصرتها، وفي محاولات بطولية لردّ العدوان وتخليصها فقد المسلمون الكثير من الرجال والفرسان نظرا لانقطاع الأقوات داخل المدينة و كذا المؤن القادمة من جبال شلير sierra nivada بسبب نزول الثلج والأمطار، الأمر الذي دفع بأهلها إلى قبول المفاوضات مع العدو من أجل إيقاف القتال وتسليم المدينة، فما كان على الأمير أبي عبد الله محمد بن علي آخر ملوك بني الأحمر وغرناطة، إلا إرسال مندوبين عنه إلى الملك فرديناند للتفاوض من أجل

---

[14]. عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1960م ، ج7، ص262. انظر أيضا ابن أبي زرع، (أبو العباس أحمد الفاسي)،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط1972، ص405.

[15]. هو المعتمد بن عباد(431-488هـ/1040-1095م) آخر ملوك عصر الطوائف بالأندلس ويعد قطب الرحى في أحداث ذلك العصر، اشتهر بالشجاعة والحزم ولد بباجة الأندلسية وولي اشبيلية بعد وفاة أبيه، استولى على قرطبة وكثير من الممالك الأندلسية الى أن بلغ مرسية، استنجد بيوسف بن تاشفين المرابطي ضد تحرشات ألفونصو السادس الذي جهز جيشا التحم بجيش النصارى في موقعة الزلاقة فكان النصر للمرابطين، ليعاود المعتمد الطلب بعد أربع سنوات من ذلك، فاستجاب له متثاقلا لاستيائه من تصرفات ملوك الطوائف وتشاحنهم فيما بينهم، فأفتى الفقهاء بعدها بضرورة بقاء المرابطين بالأندلس، ورفض المعتمد الدخول في طاعته وقاومه لكنه غلب على أمره، حول هذا الموضوع انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج4، صص203-204.

[16]. العدوة بكسر العين أو فتحها المكان المرتفع، قال الليث : العدوة صلابة من شاطئ الوادي، ويقال عدوة ويقال في التنزيل: إذ انتم بالعدوة الدنيا، وهم بالعدوة القصوى، وقال الفرا : العدوة شاطئ الوادي، الدنيا مما يلي المدينة والقصوى مما يلي مكة، قال ابن السكيت :عدوة الوادي وعدوته جانب الوادي وحافته، والجمع عدى بكسر أو ضم العين .ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت 2004، ج10، ص70و71. أو العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الأندلس وشمالي افريقيا وبعد عن بلادهم الى الغرب الأقصى والأوسط والأدنى .انظر هامش 1 مجهول،المصدر السابق ص48.

[17]. مجهول،المصدر السابق، ص46.

[18]. كانت غرناطة في هذه الفترة تضم ثلاث ولايات متحدة هي ولاية غرناطة وولاية مالقة وولاية المرية تتمتع كل منها بنوع من الاستقلال الداخلي، لكنها تقع تحت حكم ابن الأحمر، انظر راغب السرحاني ،المرجع السابق، ص642.

[19]. مجهول، المصدر السابق، ص37 .

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

الحصول على شروط مقابل تسليمه المدينة، وفي هذا يقول صاحب النبذة: ((فكتب السّلطان محمد بن علي إلى ملك الروم بالصلح، فقال ملك الروم: بشرط أن تمكنني من الحمراء ومدينة مرون وجبال السبيكة([20])، فانعم له بذلك فقطع النصارى إلى المدائن، فأخلى لهم تلك الناحية من المسلمين ودخل النصارى دون أولاد الفنش منهم لقلة زمامهم وعهدهم([21]).

لقد حدث هذا مع ملوك الطوائف السابقين حيث كانوا يدفعون الجزية صاغرين للنصارى ولألفونسو السادس خصوصا، وهم في ذلة ومهانة حتى يحفظ لهم أماكنهم وبقائهم على الحكم في بلادهم وفي نفس الوقت يثخنهم بالغارات المتواصلة([22]).

كانت هناك محاولات ابتزاز من النصارى قبل دخول المدينة الهدف منها جسّ نبض المسلمين، ففي عام خمسة وتسعين وثمانمائة كتب ملك الروم إلى السلطان بأنه يجب على المسلمين أن يعينوه بالزرع في كل سنة بالذي وجب في دينهم من الأعشار والزكوات، فقبلوا بذلك ليؤّمنوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأملاكهم ورضوا بالشروط، ليرتحل ملك الروم إلى ناحية المدينة الحمراء، ويعاين ضعف المسلمين، وينتقل بعدها إلى جبل الفتح قرب غرناطة،وبعدها بعثوا إليه بأن المسلمين في غاية الضعف وقبح الوجنة،فراحوا يأكلون أموال المسلمين الذين اشتكوا أمرهم إلى أميرهم محمد بن علي الذي أوصاهم بالصبر لحين رحيل النصارى عن مدينتهم ناحية قشتالة([23])

استمرت المفاوضات بضعة أسابيع، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم، التي وافق عليها الملكان في شهر محرم 897هـ/ نوفمبر 1491، وتعهدا بتنفيذ شروطها حرفيا ودون تعديل بالزيادة أو النقصان حتى بعد وفاتهما، وكانت المفاوضات تجري في سرية تامة خشية ثورة أهالي غرناطة، وحتى تحقق غايتها المرجوة،وفي هذا الشأن يقول صاحب النبذة ((وقد زعم كثير من الناس أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم بينهم وبين ملك النصارى النازل عليهم الكلام في إعطاء البلد إلا أنّهم خافوا من العامة وكانوا يحتالون عليهم ويلاطفونهم))([24]) .

قرئت العقود على أهل غرناطة واطمأنوا إليها وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لملك قشتالة وسمحوا له بالدخول إلى مدينة الحمراء والى غرناطة،وعند ذلك أُمر محمد بن علي بإخلاء المدينة وتمّ ذلك، فأقام أهلها ينتظرون دخول النصارى لقصبتها([25]).

لقد اطمأن فرديناند للوضع، وخاصة بعد أن دخل أهل البشرة تحت ذمته، فسرّح ما كان لديه من المسلمين الذين تركهم رهنا مكرمين، فدخل الحمراء في بعض خواصه وبدأ يتنزه في القصور والمنازل المشيدة إلى آخر النهار، ليعود بعدها إلى محلته ويرتحل أبو عبد الله بأمر منه إلى قرية اندارش

[20]. جبال في أعالي الحمراء من غرناطة .
[21]. مجهول،المصدر السابق، ص46.
[22]. انظر راغب السرحاني، المرجع السابق، ص425.
[23]. مجهول،المصدر السابق، ص47.
[24]. مجهول،المصدر السابق، ص41.
[25]. نفسه،ص41.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

من قرى البشرة مع عياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ومن فوق الصخور الشماء التي عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة التي فقدها، وأنّبته أمه على بكائه قائلة " أبكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال"، بعدها بدأت غرناطة تفقد خواصها ومميزاتها الإسلامية، إذ حلّت أصوات النواقيس محل الآذان في صوامعها، والصور والصلبان محل ذكر الله وتلاوة القرآن ،حينها اشتعلت قلوب أهلها ودمعت عيونهم حرقة عليها.

معاهدة التسليم محتواها وأبعادها:

يحلو لبعض العرب والمسلمين تسمية المعاهدة بمعاهدة الخزي والشنار(أي العيب والعار) وقد دارت بين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر وفرناندو الثالث ملك قشتالة هذا الأخير الذي عاهد ابن الأحمر من خلالها بأن يضمن له بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات([26]).

احتوت المعاهدة على سبعة وستين شرطا حسب المصادر العربية ([27]) أو ستة وخمسين شرطا حسب المصادر القشتالية ([28]) ويوردها لنا المقري مجتمعة بقوله: ((استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها:تامين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ،وان تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا ، وان يولى على المسلمين الا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وان يفتك جميع من اسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصا أعيانا نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وان لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فان أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفّر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدّجن ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا

---

[26]. راغب السرحاني ، المرجع السابق،ص638.

[27]. وهذا حسب كل من المقري في كتابه نفح الطيب ،ج4،ص525-526، والسلاوي الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)،الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ط1، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء-المغرب1997 م ج4،ص104.

[28]. انظر عبد الواحد ذنون طه،حركة المقاومة العربية في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، دار المد الإسلامي،ط1،دار الكتب الوطنية ،بنغازي –ليبيا،2004، ص09 .

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره....))([29]).

ومن أهم ما جاء فيها من شروط من الطرف النصراني أيضا :

أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة ومقدارها مائة وخمسون ألف دينار من الذهب سنويا، وأن يحضر ابن الأحمر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش.

و أن يحكم -أي ابن الأحمر -غرناطة باسم ملك قشتالة، وأن يسلم ما بقي من حصون جيان وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، و أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك.

إن في بنود المعاهدة الكثير من المعاني والدلالات ففي بندها الأول تجسيد لما آل إليه حال الأمة الإسلامية بعد سقوط الدولة الموحدية التي فرضت سيطرتها ونفوذها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا وأن أهل الأندلس أصبحوا غرباء في وطنهم وأصبحوا في وضع المعاهدين أو أهل الذمة حينما كان المسلمون يفتحون أصقاع اسبانيا الواحد تلو الآخر.

أما البند الثاني ففي حضور ابن الأحمر اجتماع الكورتيس دلالة على أنه أمير تابع ضمنيا ومملكته غرناطة لقشتالة ،أما الثالث فيدل على أن ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماما ([30]).

أما في البند الخاص بمساعدته في كل حروبه إذا احتاج إليها،فهذا تسليم كامل وتام لأنه تحالُف من جهة واحدة تصب في صالح فرناندو و سينفذ الطلب حتى ولو كان ضد المسلمين، وفعلا فقد كان ابن الأحمر وفيا لتلك الالتزامات وخاصة في إسقاط اشبيلية أعظم القواعد الأندلسية حينها.

ومن المفارقات التاريخية فقد حدث قبل سقوط غرناطة والأندلس بنحو أربعين سنة فتح القسطنطينية سنة 857هـ/1453م أي أن نور شمس الإسلام غرب عن أوروبا من ناحية المغرب لكن بعد أن أشرق عليها من ناحية الشرق بفضل الأتراك الذين رفعوا راية الإسلام بها وبشرق أوروبا بعد أن خان ملوك الأندلس دينهم وشعوبهم([31]) .

_ أهل غرناطة بين الدّجن والهجرة إلى العدوة المغربية:

انقسم أهل الأندلس بعد النكبة الى قسمين: قسم أبى مغادرة البلد، وقسم ارتأى الهجرة إلى بلاد الإسلام بعد أن سيطر النصارى على بلادهم، فأصبحت في نظرهم بذلك دار كفر في ظل ما صدر من فتاوى بهذا الشأن على غرار فتاوى الونشريسي في كتابه ((أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على

[29]. المقري التلمساني، المصدر السابق،ج 4،ص526.

[30]. راغب السرحاني،قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، ط1،2011م، ج1، ص639-640.

[31]. نفسه،ص726-727.

Issn: 2335-1470 المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019

وطنه النصارى ولم يهاجر"([32]) الذي وردت فيه جملة من المسائل بهذا الشأن على غرار جواز إقامة المسلم في بلد غلب عليه النصارى من عدمه ؟ وأن الهجرة إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ([33])، وأن الإقامة لا تجوز إلا بوجود عجز عن الهجرة، وغيرها من الفتاوى التي طرحتها بإلحاح حالة سقوط غرناطة والوضع الجديد الذي آل إليه مسلموها بشكل خاص والأندلس بشكل عام، إضافة إلى عدم وثوق الكثيرين منهم فيما قدمه الملكان الكاثوليكيان من وعود وعهود .

أ-المريسكيون وحياة الدجن:

فأما الذين آثروا البقاء بالأندلس فيمكن تقسيمهم إلى قسمين:

1-قسم لم يسلّم بالمعاهدة وبسقوط المدينة:

إذ لم يمض سوى شهران على رحيل الملكين من غرناطة حتى عادت بعض القرى التابعة للبشرات Alpujarras إلى الثورة([34])، فرغم التسليم لم تخب جذوة الثورة والتمسك بالأرض من نفوس المسلمين الذين آثروا البقاء هناك والتي لم تكن سوى بداية لجملة من الثوارات([35])، ويذكر خينيث بيريث أن غرناطة رغم التسليم إلاّ أنها لم تنعم بالهدوء لمدّة سبع وسبعين عاما ، ويشير إلى أن بقايا المسلمين شكّلوا خلايا إرهابية ضد المسيحيين، يدفعهم في ذلك الحقد الدّفين ضدهم حسب زعمه، ربما يكون ذلك من قبيل تبرير المعاملة الوحشية التي عومل بها بعض المسلمين، ويذكر من أولئك - عروبا - Arroba الذي استطاع هو ورفاقه الثلاثة عشر أن يفتكوا بما لا يقل عن أربعة ألاف قتيل والذين لقوا حتفهم في طرقات -أغواس بلانكاس- Aguas Blancas الواقعة بين غرناطة وغواديكس Guadix، فقطّعوا إربا وعلقت رؤوسهم على أحد الأبراج ،إضافة إلى مسلم آخر شجاع حسبه يدعى القانياري EL CANIARI، والذي كان يهاجم المسيحيين من غابة روما الكثيفة التي اتّخذ منها وكرا له([36])، ويرى بأن هذه الأعمال كانت سببا فيما تعرض له المسلمون من تعذيب وتنكيل بقوله أنها كانت سببا في نفاد صبر المسيحيين على هذه المعاناة وهذه الشرور، فاتّفقوا على أن يجعلوا المسلمين يدفعون نفس الثمن، فكونوا فرقا للحراسة مجهزة تجهيزا جيدا، وكانوا يخرجون مساء فإذا عثروا على مسلم في طريقهم قتلوه([37]).

---

[32]. هو أحمد بن يحي الونشريسي المعروف بابي العباس صاحب كتاب المعيار المغربعن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب،ولد بمنطقة الونشريس بالجزائر وترعرع ونشأ في تلمسان وقضى حزءا من حياته بفاس بالمغرب الاقصى توفي سنة914هـ/1509م فعاصر سقوط غرناطة

[33]. الونشريسي(أحمد بن علي)، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر1416هـ/1996م. ، ص25

[34]. خينيس بيريث دي ايتا، المرجع السابق،ص29

[35]. كانت بداية الثورة العربية ضد السياسة النصرانية تجاه الموريسكيين مثل ثورات البشرات الاولى 906هـ/1500م، والثانية976هـ/979/1586-1571م ولمزيد من المعلومات حول هذه الثورات يرجى العودة إلى : عبدالواحد ذنون طه،حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة،ط1،دار المد الإسلامي،2004.

[36]. خينيس بيريث دي ايتا،المرجع السابق،ص30.

[37]. خينيس بيريث دي ايتا،المرجع السابق، ص30.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

لقد كانت هناك محاولات من المسلمين لاسترجاع المدينة يوردها لنا صاحب كتاب الحرب ضد المورسكيين، وفي نفس الوقت يجعلها حجة ومبررا لما قام به المسيحيون ضد أهل غرناطة بشكل خاص وأهل الأندلس بشكل عام ،فيقول: ((أن المسلمين تعاملوا بوحشية مع المسيحيين ودور عبادتهم،فقد قاموا بسرقات كبيرة طمعا في امتلاك الأسلحة، وكل ذلك من أجل تحقيق محاولتهم المزعومة، فقد تم تسليح الريف كله واتفقوا على الذهاب الى نهر المرية، وعندما وصلوا الى قرية جميلة تدعى غيثيخا guecija كان اول ما فعلوه هو إضرام النار في دير لرهبان دوكيمبكيين وقاموا بذبح الرهبان وجرّدوهم من ملابسهم والقوا بهم في حوض كبير كان يجمع فيه الزيت ومعهم عدد من المسيحيين وفيهم أيضا ابنة المحامي خيباخا gibaja الجميلة والتي ظهرت طافية على الزيت بملابسها الجميلة والغالية وقفازها في يديها، وبعدها اتفقوا على الانقضاض على غرناطة واسترجاعها في أول ليلة من ليالي عيد الميلاد، لأن المسيحيين في هذا الوقت يكونون مشغولين بصلاة الفجر، ويقول لكن الرّب لم يرد لهذه المحاولة أن تنجح وترى النور لان الجليد تساقط لمدة ستة أيام قبل تلك الليلة فغطت كل الطرق المؤدية الى المدينة))([38]). أضف إلى ذلك المقاومات المعزولة من طرف المسلمين الذين رفضوا الاندماج في المجتمع النصراني والتي سحق أهلها ونكل بهم وأخرى نجحت وكبّدت الاسبان خسائر مادية وبشرية معتبرة ولم يستطيعوا التخلص منها إلا بإعطاء أهلها الآمان والجواز إلى بر العدوة المغربية

2- **قسم خدع بالوعود المعسولة وسياسة الاعتدال:**

وهي السياسة التي مارسها وأبداها الأسبان لهم عقب سقوط المدينة،ناهيك عن ما أظهره فرديناند للمسلمين في هذه المدّة من العناية والاحترام، حتى كان النصارى يغيرون منهم ويحسدونهم ويقولون لهم: ((أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا))، فوضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيدا ليقرّهم بذلك وليثبّطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم، فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة أنيقة من أهل غرناطة الذين قرروا الرحيل عنها نحو بلاد المسلمين وعزموا على الجلوس مع النصارى أو على الدجن ([39]).

كما أن الظروف التي كانت عليها العدوة المغربية زادت بعض أهل الأندلس إصرارا على حياة الدجن، إذ وبعد أن حلّوا بها وجدوا الناس قد أصابتهم شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، ففر كثير من الناس من شدة الآمر وخاصة من مدينة فاس، ورجع عدد هام من أهل الأندلس إليها فاخبروا من كانوا هناك بتلك الشدة فعزفوا عن الجواز إليها وعزموا على الإقامة والدجن([40]).

سرعان ما تخلى النصارى عن بنود معاهدة الصلح الواحدة تلو الأخرى أو عروة عروة على حد تعبير المقري([41]) فحاولوا أن يحوّلوا قسرا الرعايا من العرب والمسلمين إلى المسيحية ودعواهم

---

[38]. نفسه، ص55

[39].مجهول، المصدر السابق، ص43.

[40]. نفسه،ص44.

[41]. المقري،المصدر السابق، ج4،ص527

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

في ذلك: أن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ([42])، وكان هذا استئنافا للحملة التي شنها الملك بفرضه للمغارم الثقيلة ومنع الآذان من الصوامع، وأمر بخروجهم من غرناطة نحو الأرباض والقرى المجاورة ([43]). فزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ودعاهم إلى التنصر فصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا اله إلا الله محمد رسول الله جهرا إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، حينها تقطعت قلوبهم على أولادهم وبناتهم الذين أصبحوا يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ولا يستطيعون منعهم أو حتى نهيهم لأن من يفعل ذلك يعاقب عقابا شديدا([44]).

لقد وثق ملك غرناطة وأهلها في من عرف بكل الصفات الدنيئة وهو فيرناندو، فقد وصفه المؤرخ زوريتا بأنه كان مشهورا لا بين الأجانب فقط، ولكن بين مواطنيه أيضا بأنه لا يحافظ على الصدق ،ولا يرعى عهدا قطعه، وأنه كان يفضّل دائما تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو عدل وحق([45]).

نعم، لقد وصل الأمر بالاسبان بأن يقولوا للرجل المسلم أن جدّك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا([46])، فلما استفحل الأمر ثار أهل البيّازين([47]) على الحكام وقتلوهم، وكان هذا سبب تنصر الكثيرين خوفا على أرواحهم، ويقول المقري بهذا الشأن((وبالجملة تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، بينما امتنع البعض عن التنصر واعتزلوا الناس ولم ينفعهم ذلك، كما امتنعت قرى وأماكن مثل بلفيق واندرش، لكن العدو جمع لهم الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا))([48]).

وحسب الرواية القشتالية الرسمية، فلم يُبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع النصراني وبقوا في معزل عنه, يقومون بشعائرهم الإسلامية ويدافعون عنها بكل تفان، وحتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجأوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية وأخفوا الإسلام, فكانوا يتوضئون, يصلون ويصومون... كل ذلك خفية عن أعين الوشاة والمحققين.

ومنهم من رفض التنصير والدّجن قلبا وقالبا ومنهم أهل قرى اندراش، ونجر،البشرة و بلفيق لكن ملك اسبانيا أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نسائهم وصبيانهم وأموالهم ونصرهم واستعبدهم، في حين نأى البعض بدينهم وأنفسهم إلى غربية الأندلس واستطاعوا بعد معارك فاق

---

[42]. نفسه ،ج4،ص527

[43].انظر،مجهول، المصدر السابق، ص44،أو المقري، المصدر السابق ،ج4،ص527.

[44]. مجهول، المصدر السابق، ص44

[45].عبد الله عنان ،نهاية الاندلس، ص333

[46]. المقري ، المصدر السابق، ج4،ص527.

[47].من أقدم وأكبر أحياء غرناطة الذي سكنه الحرفيون والصناع ويقع في مقابل قصر الحمراء الشهير ، وما يزال يحتفظ بطابعه وطرازه الأندلسي رغم المحاولات التي طالته من قبل الملوك الاسبان بعد سقوط غرناطة.وهو وجهة سياحية لأكثر زائري اسبانيا.

[48]. انظر المقري،المصدر السابق، ج4،ص527.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

عددها الثلاثة والعشرين هزمه وقتل الكثير من جنده وحينما يئس منهم أعطاهم الآمان على أن يسمح لهم بالجواز إلى العدوة المغربية فقبلوا بذلك ([49])

فقد أجمع العديد من المؤرخين وعلماء الاجتماع أن الأقلية الموريسكية التي بقيت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية بعد تسليم غرناطة شكلت شريحة بشرية غير متجانسة مع الإطار العام الذي كان يسمى آنذاك باسبانيا المسيحية، فظهرت هذه الأقلية بمظاهر حياتية تتناقض والإطار الاجتماعي الشامل، فشكلت بداخله ما يشبه البحيرة التي تنغلق على أسرارها وتتفاعل عناصرها فيما بينها مستمدة منها حيويتها بفضل تعاضد أفرادها، فأصرّت برغم ما يحيط بها من وسائل التضييق والعنف على التمسك بهذه الوشائج الحضارية التي فقدت إطارها العام والشامل ([50]).

والجدير بالذكر أن هذه المحاكم كانت تطارد كل موريسكي في أي مكان، وتلفق لهم أي تهمة لتخضعهم للتعذيب، وكان الفقهاء هم المستهدفين بشكل كبير لأنهم هم الذين يدعمون الملّة الإسلامية حسب رأيهم([51]) ،وقد تمسك أهل الأندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني، فكانوا بذلك يجدّفون ضد تيار الحتمية التاريخية بإصرار الطرف المسيحي الغالب على محاولة إلغاء مقومات الشخصية الحضارية للموريسكيين وضرب أعز ما لديها خاصة الدين واللغة.

لقد قاسى الموريسكيون من ظروف جد صعبة وخاصة بمجيء الكاردينال خيمينيس المتزلف للملكة إيزابيلا على رأس أساقفة طليطلة، إذ أمر بإحراق جميع الكتب العربية والمصاحف في ميدان باب الرملة بغرناطة، وانتهج سياسة الترهيب والقسوة مع المسلمين، فعزم على تنصير أهل غرناطة، وطال من تبقى من فقهاء المسلمين في محاولة منه لإقناعهم بالتنصر دون جدوى، فما زاد المسلمين إلا تمسكا بدينهم، وكان من بين من ناظره الكاردينال الشيخ الصّقري الذي أفحمه، فأمر بجلده ثلاثمائة سوط إن لم يؤمن بالمسيح، ثم أمر بقتله حينما صمد وثبت على دينه([52]).

زادت معاناة مسلمي غرناطة بعد تشكيل محكمة للتفتيش بها سنة 1526م،إذ كان زبانيتها يدقّون أبواب بيوتهم فجرا وهم نيام ليساقون إلى زنزانات التحقيق، وأصبحت لوائح تلك المحاكم تترى عليهم، منها ما هو جديد ومنها ما يجبّ ما قبله أو يشدّد عليه،فقد حظر الختان والوقوف تجاه القبلة وكذا الاغتسال والاستحمام وحظر الحديث باللغة العربية([53]) ولبس الملابس

[49].مجهول،المصدر السابق،ص44-45.

[50]. عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الاندلس1492-1616،الدار التونسية للنشر تونس-المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989،ص9.

[51]. محمد عبده حتاملة ،الاندلس التاريخ والحضارة والمحنة –دراسة شاملة-مطابع الدستور التجارية،الأردن 2000،ص1122.

[52]. نفسه،ص1104.

[53]. وعلى عهد الملك فيليب الثاني شدد الحصار على العربية نطقا وكتابة واعتبر استخدامها جريمة فلجأ الموريسكيون لاستعمال لغة الألخميادو التي تعرف بالعربية بعجمية الأندلس وتعتمد على نسخ اللغة الرومانية القشتالية بأحرف عربية وذلك بمبادلة كل حرف قشتالي بما هو اقرب اليه من الناحية الصوتية عربيا،وبفضل هذه اللغة استطاع من تبقى بأرض الأندلس الحفاظ على تراثهم وهويتهم وحضارتهم.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

العربية، فلم تترك وسيلة إلا وقامت بها لترعب أهل غرناطة، فلم تتوانى عن إحراق جسدين في أول احتفال ديني شهدته غرناطة سنة 1529م([54])، ونظرا للأعمال الإرهابية التي مارستها محاكم التفتيش ضد الموريسكيين قصد اجتثاث الشعائر الإسلامية القائمة ودفعهم إلى الاندماج التام في الإيمان الكاثوليكي حتى أصبحوا مضطرين للشك في كل من حولهم([55]) .

وفي محاولة أخرى لفصل الموريسكيين عن كل ما يصلهم بدينهم، فقد أمر ثيسنيروس بأن يحضروا له جميع المصاحف والكتب الدينية لأي مؤلف كان وعن أي موضوع كان، فنُفّذ وأحضر له ما يقرب من خمسة آلاف كتاب باللغة العربية وهي كتب مجلدة بكل عناية، وكان بعضها مزخرفا بالفضة والذهب واللؤلؤ، وألقيت كلها في حريق عام حتى لا يبقى من شريعة محمد أدنى اثر، ولم يسلم من النيران سوى ثلاثمائة كتاب خاصة بوصفات لعلاج الأمراض وليست بها أخطاء ولا خزعبلات ([56]) اي ما يتعلق بالدين الإسلامي.

لقد حاصرت محاكم التفتيش([57]) المسلمين أو الموريسكيين بمنعهم من مزاولة العديد من الأنشطة و فرضت عليهم وضع شارة زرقاء في قبعاتهم، ومن خالف ذلك يعاقب بالجلد والتعذيب والقتل والنفي، أو يسجن في سجونها التي كانت رطبة قذرة فاسدة الهواء ضيقة مظلمة يحرم فيها السجين النور والهواء النقي والحركة ، وهو شبه عار جائع دوما، وفي عهد شارل الخامس منعوا من استعمال العربية والتخلي عن اللباس العربي الإسلامي أن يتركوا استعمال الحمامات وقد باءت كل هذه المحاولات بالفشل فقد ظلوا على دين آبائهم وعاداتهم وتقاليدهم في طعامهم وشرابهم وصيامهم، ورغم أن التنصّر كان قد تمكن من كثير من الموريسكيين حينما تولى فيليب الثاني عرش اسبانيا سنة 1555م وغابت عنهم مظاهر الإسلام والعروبة غير أن قبسا من دينهم ظل يجثم في قرارة نفوسهم([58])، ولم تزدهم المحن والخطوب سوى إصرار وتمسكا بدينهم، ولم تقتصر مهمة تلك المحاكم على ملاحقة الموريسكيين في اسبانيا بل لاحقتهم إلى القارة الأمريكية فأنشئت محاكم في –ليما- بالبيرو ، وأخرى في مكسيكو سنة 1592م ومنعتهم من القيام بأي فعل أو عادة أو طقوس تمت بصلة إلى حياة مسلمي الأندلس ([59]).

ومن باب استرجاع الذاكرة التاريخية فإن النصارى الذين كانوا يصيرون إلى أرض المسلمين فكانوا يعتبرون أهل ذمة أو معاهدين، لهم حقوق وعليهم واجبات مقررة في الشريعة، فإذا

---

[54].عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة، 1403هـ/1983م، ص217.

[55]. هورتز وينثنت،تاريخ مسلمي الاندلس، ص128.

[56]. مانويلا مانثاناريس،المستعربون الاسبان في القرن التاسع عشر، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، ،ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص14.

[57].انتشرت في كل انحاء اسبانيا والبرتغال وكانت مقراتها في اغلب الحالات تقوم في الأديرة والكنائس لأنها ولدت في أحضانها وفيها نمت وترعرعت وكذا في بعض المباني الاسلامية بعد خروج اهلها منها .انظر محمد عبده حتاملة ،المرجع السابق،ص1105.

[58]. عبد الله عنان، نهاية الاندلس،ص 339 .

[59]. محمد عبده حتاملة ، المرجع السابق،ص1120-1121.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

استعربوا لسانا وأسلوب حياة واندمجوا في حياة الأندلس الإسلامي سماهم إخوانهم ((المستعربين)) التي لم تستعمل حينها، بل استعملها كتاب النصارى الذين ألّفوا بالعربية في الكلام عن أنفسهم وإخوانهم([60]). وحتى اليهود فقد عوملوا من طرف الفاتحين المسلمين معاملة حسنة لدرجة أنهم كانوا يعينون كعسس أو حراس على المناطق المفتوحة، وبالنقيض من ذلك تماما عومل المسلمون في المناطق التي استردها الاسبان كما أسلفنا الذكر، ونتيجة لهذا الوضع كان هناك من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، لأن النصارى شددوا عليهم البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السّكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد([61]) أولئك هم أصحاب الدجن .

و للدّجن العديد من المعاني، فيقال دجن بالمكان أي أقام به، ودجن الليل أو دجا، أي اسود وزاد ظلامه، ودجن الحيوان أي استأنس بالمساكن وألفها، والدّجن إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء، والدجنة الظلمة وجمعها دجن، وكلها تتجه نحو التعبير عن وضع أولئك المسلمين بالأندلس ،فهم الذين رضوا بالبقاء والإقامة بها بعد استحواذ النصارى عليها،وهم الذين أحاطوا نفسهم بهالة من الغموض في ممارسة طقوسهم الدينية خشية الوقوع في قبضة محاكم التفتيش.

وبالتالي فالمدجنون هم أهل الأندلس الذين تبقوا في الأندلس وأضمروا إسلامهم خشية الوقوع في محاكم التفتيش، ويرى البعض بأن كلمة مدجن تعني الموريسكي التي عوضتها في وثائق محاكم التفتيش التي نعتت الموريسكيين بالمسيحيين الجدد (Cristiano nuevo de moro)([62])، ويرى آخرون أن كلمة الأندلسيين المواركة هم العرب الذين بقوا في قشتالة وغرناطة إثر صدور مرسوم التنصير سنة 1502م، والأندلسيين الذين نصّرهم الرّعاع بالقوة سنة 1521م، وبالتالي فكلمة المواركة تعريب لكلمة موريسكوس القشتالية التي تعني النصارى الجدد أو النصارى الصغار([63]).

وما تجدر الإشارة إليه أن حياة الدّجن بدأت حتى قبل سقوط غرناطة، وهذا ما نستنتجه من قول صاحب كتاب النبذة حينما يقول : ((فخلصت جميع بلاد الأندلس لصاحب قشتالة ودخلت تحت طاعته وتدجّن جميع أهلها ، ولم يبق للمسلمين بالأندلس غير مدينه غرناطة وما حولها))([64]).

ب-أهل الأندلس ومحنة الهجرة والتهجير القسري:

من جهة أخرى هناك من مسلمي الأندلس **من آثر الانتقال إلى العدوة المغربية** خاصة في الأيام الأولى التي أعقبت تسليم المدينة التي عوملوا فيها بشكل جيد ووفرت لهم السفن

[60]. الونشريسي، المصدر السابق، ص13.

[61]. المقري،المصدر السابق،ج4، ص527- 528.

[62]. انظر هلايلي حنيفي،الجزائر والملف الموريسكي خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي،جامعة الجيلالي اليابس،سيدي بلعباس،الجزائر،العدد3-4، مارس 2011-2012م، ص98.

[63]. انظر،عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة، 1403ه/1983م، ص6.

[64]. مجهول، المصدر السابق، ص27.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

والمراكب التي تقلهم إليها وهذا ما ندركه من خلال كاتب النبذة الذي عاصر الفترة في قوله : فلما اطمأن ملك قشتالة غدر المسلمين ودخل البلد -غرناطة- ودار فيه في نفر من قومه وحشمه سرح للمسلمين الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه([65])، كما كان النصارى قد عاملوا المسلمين معاملة حسنة في هذه المرحلة المبكرة بعد سقوط مدينتهم فكانوا يرفعونهم إلى البحر محترمين مكرمين ويجوزونهم إلى عدوة المغرب آمنين مطمئنين([66]).

ولأنهم كانوا يدركون في قرارة أنفسهم أن تلك المعاهدة ما كانت إلاّ سياسة تمويه مؤقتة وربما تأخرت اسبانيا المسيحية في خلع القناع وإبداء الوجه الحقيقي إلا بضع سنوات يحددها البضع بسبع([67])، وقد حافظ من ولّوا على إدارة المدينة على أن يسود الهدوء والطمأنينة في تلك السنوات وهما الكونت تينديا وهرناندو تلافيرا.

لقد بدأت عملية الجلاء بمشاهد جد محزنة ومأساوية،جحافل من البشر من مختلف الأصناف، فقراء و أغنياء علماء وجهلة نساء ورجال وبنات، شيوخ وعجائز يحف بالجميع أنين ودوي جعل الشعراء يطلقون عليه أوصافا مجازية متعددة الأبعاد، كالقطعان التائهة مثلا أو أزيز النحل([68])،لأنه ومن باب الإشارة أن المعاملة الحسنة لأهل الأندلس لم تدم طويلا،إذ بعد عودة الكثيرين إلى الأندلس خشية المسغبة والمجاعة بالعدوة لم يعد النصارى يجوزون أحدا إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال[69] إنها مسيرة محتومة يحيطها جو من الرعب والحقد لوجوه كالحة تتلمظ حقدا وكراهية وتنتظر بفارغ الصبر لحظة الخلاص من هذا الخطر المتشبث باسبانيا، الأرض التي يغادرونها مكرهين في ظروف عدائية بعد تسعة قرون عددا من الحضور المشرق والعطاء المستمر المتجدد([70]).

إنها مسيرة متعبة ومكللة بالعذاب حيث لم يسمح لهم فيها بأبسط الوسائل للنقل وكل ما يرغب فيه الفرد عليه أن يتجشم معاناته على ظهره وله أن يختار بين المتاع والولد لأنه لا مجال للانتظار ومد يد المساعدة([71]).

ومن المواقف المؤثرة التي يرويها النصارى هو خروج المنهزمين- أي مسلمو وعرب غرناطة- تجاه المنفى الإجباري تاركين وراءهم الدّمار وقاصدين في مسيرتهم بوابات المجهول-رغم ان بلاد المغرب

---

[65]. مجهول، المصدر السابق، ، ص42-43.

[66]. نفسه،ص43.

[67]. عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق،ص15.

[68]. عبد الله حمادي،المرجع السابق، ص 63.

[69]. مجهول،المصدر السابقنص44.

[70]. عبد الله حمادي،المرجع السابق، ص 63.

[71]. عبد الله حمادي،المرجع السابق ، ص64 وما يليها

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

حينها كانت مفتوحة امام كل المسلمين وهذا ما حدث فعلا باندماج أهل الأندلس مع سكان المناطق التي هاجروا اليها- ذاك المشهد الذي جعل الشاعر -كمنديثدي باسكونثيلوس- يوقفه منظر امرأة وقد حملت على صدرها طفلين وعلى ظهرها كذلك، دون أن تتحرر يداها من طفلين آخرين([72]).

ويبين لنا صاحب النبذة أولى الرحلات التي تمت تحت رعاية ملك اسبانيا وهي التي كانت للأمير محمد بن علي، إذ بعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة([73])فاجتمع معه خلق كثير ممن أرادوا الجواز وقد ركبوا في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا في مدينة مليلية المغربية ليرتحل بعدها الى مدينة فاس([74]).

لتشهد مدن الأندلس الجنوبية سلسلة من الرحلات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما أورده صاحب النبذة حين يقول: ((إذ خرج أهل مالقة في ثلاثة أيام نحو بادس المغربية وخرج اهل المرية نحو تلمسان في نصف اليوم وفي نفس المدة خرج أهل الجزيرة الخضراء نحو طنجة، .....وخرج من بقي من أهل غرناطة في خمسة عشر يوما إلى بجاية ووهران ومازونة ونفطة وقابس وسفاقس وسوسة .....))([75])

خاتمة: نعم لقد كانت غرناطة آخر حبات الرمانة العربية الإسلامية التي ألتهمها الاسبان نتيجة لتقاعس حكامها وضعف حيلتهم ووثوقهم في وعود عدو طالما تربص بهم الدوائر، كل هذا طبعا بعد أن أصبحت مدينتهم يتيمة معزولة في شبه الجزيرة الأيبيرية، ليضطر أهلها إلى خيارين كلاهما مرّ،فإما البقاء بأرض لم تعد إسلامية فيقايضون على دينهم وملتهم، وإما الهجرة إلى أرض العدوة فيتركون ورائهم الأرض والإرث والأملاك، الأمر الذي نتجت عنه جملة من الاختلالات في كلا النطاقين أي شبه الجزيرة الأيبيرية وبلاد المغرب بينت وكشفت عن الوزن العربي الإسلامي، إذ عاشت اسبانيا بعدها نكوصا اقتصاديا لهجرة من كانوا يعمرون الارض ويفلحونها، بينما ازدانت بلاد المغرب بنمط عمراني

[72]. نفسه،ص64.

[73].عذرة- Adra– بلدة من أعمال المرية يصب في شواطئها نهر يحمل هذا الاسم وهو ينبع ويتغذي من جبال غرناطة والمرية،انظر مجهول،المصدر السابق،ص43.

[74]. نفسه، ص43.

[75]. نفسه، ص48.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة: 2019 Issn: 2335-1470

وثقافي وحضاري إسلامي لا تزال آثاره شاهدة عليه إلى يومنا هذا، وفي زوال غرناطة والاندلس قال أبو البقاء الرّندي راثيا:

لكل شيئا ذا ما تم نقصان .....فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدنها دول .....من سره زمن ساءته أزمان